ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

نظرية بعْث الحضارة بين مالك بن نبي ومحمد أبي القاسم حاج حمد

The theory of the revival of civilization between Malek ben Nabi and Abu Alqassim Hadj Hamad.

أ.محمد قاسمي D. Mohamed Gacemi gacemimohammed1@gmail.com	فلسفة	قسم الفلسفة/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر. باتنة1، الجزائر.
إشراف: د. فوزية شراد Dr. Fouzia Charad Fouzia.roza@gmail.com	فلسفة	قسم الفلسفة/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر. باتنة1، الجزائر.

DOI : 10.46315/1714-009-003-019

تاريخ الإرسال: 2020/01/05 تاريخ القبول: 2020/04/05 تاريخ النشر: 16/ 06/ 2020

ملخص: تعد هذه الدراسة محاولة لتحليل أبرز الرؤى التي تناولت إشكال الحضارة في العالمين العربي والإسلامي، سعينا فيها بالاشتغال على رؤيتين مختلفتين في المنطلق والمضمون، وتشتركان في الغاية، أعني تصور مالك بن نبي ومحمد أبو القاسم حاج حمد، فإذا كانت الدورة الحضارية لدى بن نبي انتهت إلى الغريزة مستهلكة إنسانها المحكوم على بعثه الروحي الجديد بالتبخر، ليتشكل من جديد، نجد لدى حاج حمد انقضاء عالمية الأميين الأولى بعودة التدافع العربي الإسرائيلي إعلانا ببداية العالمية الإسلامية الثانية، مقابلة للعالمية الوضعية الراهنة، بما تطرحه من أزمات فكرية وحضارية في أبعاد مختلفة، آلت بها إلى العدَمية، حيث يأتي ضمن هذا السياق طرح حاج حمد لمنهجه المعرفي الإبستمولوجي الكوني الموحد بين القراءتين، والمُخلص لشرط الاستيعاب والتجاوز كبديل حضاري للأزمة، في واقعها المخصوص والفضاء الكوني العام.

الكلمات مفتاحية: العالمية الاسلامية الثانية؛ الناظم المنهجي؛ القرآن؛ بعث الحضارة؛ الفكرة الدينية.

Abstract:

This work is considered as essay that includes the analisis of distinguished views which treat the cinilization's shapes in the arabic world and the islamis one too, therefore in this work we have focused on two views that are different in the logic and the context,but also they have in common the same aim and goal, I mean the imagination of Malek Ben Nabi and Abu El-Kassem Hadj Hammad, by the way if the cvilizational cyrcle, for Malek Ben Nabi, cocludes that the instinct consumes its human owner whose new spiritual resurrection can be evaporated for having a new shape or form , we could find for Hadj Hammad the first end of the illeterate's mondiality by coming back the arabic israelian rising which in this way it lets starting the second islamic mondiality by comparing with the modern (positivism) actual mondiality about what it's giving as idological and cilizational crises in various forms that lead it into the nihilism,in this context we show the problematic of Hadj Hammad for his unified epistemological and universal knowledge's method between the two readings and the summary by the condition of absorbing and ovverriding as a civilizational alternative to the crise in its concrete reality and the general universal space.

Key words: The Second Islamic World; Systematic regulator; The Quran; The revival of civilization; Religious idea.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

- مقدمة:

يشهد الفضاء الفكري في العالم العربي والإسلامي المعاصر استفاقة فكرية، انطلقت إرهاصاتها وبوادرها منذ بواكير القرن التاسع عشر، ونعني بها المرحلة التنويرية إثر حملة بونابرت على مصر، وقد تمثلت في بلورة عدد من المفكرين لرؤى وتصورات فكرية تختلف في اتجاهاتها الفكرية، وسياقاتها الموضوعية والمنهجية، حيث تراوحت بين (حداثية، إصلاحية، علمانية، توفيقية ....).

وبالرغم من تعدُّدها، إلا أنها كانت تبتغي هدفا واحدا، يتمثل بالأساس في كيفية تحقيق شروط النهضة، والخروج من دائرة التخلف، تناولت هذه المشاريع بدورها الكثير من المشكلات والأزمات، التي واجهت ولا تزال تواجه الفكر العربي الإسلامي كمحاولة تسعى لرسم أفضل السبل، من أجل الخروج من الركود الفكري، والبيات الحضاري، ولتحقيق النهوض الحضاري، وقد طرقَه العديد من المفكرين والمنظِّرين كل واحد من زاوية معينة، وبحسب مقتضى السياقات والظروف.

إذ إننا نقرأ في المقاربة الفكرية والنقدية التي تضمنتها نصوص المفكر مالك بن نبي حول الحضارة، محاولة لتصور عام كفيل بقيام نهوض حضاري متكامل الأبعاد، حيث انطلق بن نبي عند تشخيصه لمشكلة العالم الإسلامي من مُسلَّمة أساسية هي مشكلة الأفكار بالدرجة الأولى، وبهذا الجُهد الذي قدَّمهُ يكون قد اتَّخذ سبيلا آخر في مسار التفكير النهضوي، ونقصد بهذا الانتقال، من مرحلة الدفاع والتسويغ، نحو مرحلة التشخيص والتوجيه والبناء. ولعله بهذا يتحقق مبتغى البعث الحضاري.

فلا يكاد ينتهي مشروعه حتى يُهندس لنا منحى الحضارة، الذي يجسد المراحل التي قطعها العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل، ابتداء بمقولة (الروح)، وانتهاء بمقولة (الغريزة)، مرورا بمقولة الأوج أو العقل، وهكذا تنتهي الدورة الحضارية التي تنطلق من جديد، في هذا السياق، وبانقضاء هذه الدورة يُساءل المفكر محمد أبو القاسم حاج حمد مالك بن نبي قائلا: ماذا بعد انتهائها؟ هل يمكن استرجاعها؟ وهل الاسترداد ممكن؟ (حاج حمد، أ، 2004، 293).

بعد إشارتنا الموجزة لمقولات الحضارة في تصور مالك بن نبي، وبناء على تشابه المسعى، يليق بنا التنبيه أيضا إلى نظرية أبي القاسم حاج حمد، ومقارعتها لمشروع بن نبي، والوقوف تاليا على جوهر رؤيته، إذ يرى من جهته أن الحضارة لا مناص لها من المرجعية القرآنية، بوصف القرآن منهاجا ومعرفة، ينبغي على المفكرين أن يعوا كرمية اصطلاحاته المفضية إلى استيعاب كلي، يتلخص في المنهج التوحيدي، الناتج بعد الجمع بين القراءتين القلمية والكونية، وفي ضوء استفهام حاج حمد نطرح بدورنا الإشكال التالي: ماهي التصورات الكبرى في مشروع بن نبي لتحقيق إمكان حضاري ؟ وما جوهر الدورة الحضارية عنده؟ ثم ما حدودها؟ وأين جادَله أبو القاسم تثْمينا واعتراضا؟ وما هو التصوُّر البديل الذي جاء به حاج حمد بما يمكِّن من تحقيق نهضة إسلامية جديدة، تُحقق بذلك

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

عالميةَ الدين الحق والحضارة الإنسانية الكاملة، أو كما أطلق عليها أبو القاسم العالمية الإسلامية الثانية؟

ـ أولا: مركزية الفكرة الدينية في معادلة الحضارة عند مالك بن نبي.

إن للفكرة الدينية دور ايجابي فعّال في تركيب تلك الواقعة، فهي وحدها من يبني الإنسان ويهيئه نفسيا واجتماعيا، حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة وتأكيدا لهذا الدور يقول بن نبي:" **فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء .. فكأنّما قدّر للإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلا ما وراء حياته الأرضية**." (بن نبي، م، 1982، 51)، كما يؤكد في معرض آخر على دور الفكرة الدينية في التغيير قائلا:" **إن الفكرة الدينية تحدث تغييرا في سمة الفرد ومظاهره حتى تغير نفسه**."(بن نبي، م، 1980، 80)، فهي تعمل على صياغة النفوس التي تحرك التاريخ بما يختلج فيها، فقيام أي حضارة منوط أو مشروط بقدرة الدور الإيجابي والفعّال للفكرة الدينية، وهذا من خلال ما يؤول إليه سلوك الفرد بعد اعتناقه إياها وتمثلها.

ويبدو دورها جليا في انتظام غرائزه وسلوكه العام، وتصرفاته وردود أفعاله ويقابل شروط الحضارة محاور ثلاثة، لا يمكن تجاوزها ونعني بها العوالم الثلاثة؛ عالم الأفكار عالم الأشخاص عالم الأشياء، ذلك أن قيام الحضارة لدى بن نبي متعلق بما يحققه المجتمع من انسجام بين العناصر الثلاثة، وهي الأفكار والأشخاص والأشياء: "**وإذا كان الأشخاص غاية بالنسبة للأشياء فإنهم يصبحون وسيلة بالنسبة للأفكار وعندما يتحولون إلى غاية تحدث مشاكل كبرى**." (البنا، ف، 2013، 80)

وفي المرحلة اللاحقة لما يصل التحرر إلى تمامه يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة أعني الغريزة، التي تكشف عن وجهها تماما، وهكذا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية، لتصبح عاجزة عن القيام بمهمتها في مجتمع منحّل يكون قد خرج نهائيا من التاريخ، وبذلك تتم الدورة في الحضارة على حد تصور بن نبي، أي حينما تدخل التاريخ فكرة دينية معينة، أو حسب تصور كيسرلنج عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين لتنتهي تلك الدورة بفقدان الروح نهائيا للهيمنة التي كانت على الغرائز المكبوتة. (بن نبي، م، 1980، 70)

-ثانيا: مُساءلة أبي القاسم حاج حمد لنظيره مالك بن نبي.

01- استفهام حول انقضاء الدورة الحضارية.

وفي هذا الدور يسأل أبو القاسم حاج حمد مالك بن نبي: ماذا بعد انتهاء الدورة الحضارية؟ هل يمكن استرجاعها من جديد؟ هل الاسترداد ممكن؟ ليقف عند جواب بن نبي في قوله: "**فالإنسان قبل الحضارة غير الإنسان بعد اكتمال الدورة الحضارية**." (حاج حمد، أ، 2004، 293)، ويجد حاج حمد هذه الكلمات غاية في الخطورة ليقف على حال وعي واستيعاب

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الشباب الذي يدرسونه كما وصفهم "بالكاد يفهمونه". ذلك أنّ هناك فرق بين الإنسانيْن في رؤية بن نبي، وبدورنا نحن نطرح إشكالا: كيف السبيل إن -جاز لنا التعبير- شحن إنسان ما بعد الحضارة من جديد ليعود فعّالا كما كان الحال مع الإنسان الفطري؟

يتساءل حاج حمد في هذا المقام: كيف يكون هذا التحول الجذري؟ أو بالتحديد كيف تكون حالة التحول إلى بخار؟ في طور لاحق يلتقي حاج حمد بمالك بن نبي الذي يجده داعية مسلم يشترط سبب بمسبب نحو علاقة الماء بالكائنات الحية، لغاية حفظ النوع فالطاقات الكامنة مشروطة بمحرك يحركها ألا وهو الفكرة الدينية، ولغاية معينة فوق أرضية كما ينعتها حاج حمد بتحقيق غائية الحق في الخلق، وابن نبي قرر أن الفكرة الدينية تطبع في قلوب الأفراد دلالات ومعانِ لغائيتهم وأهدافهم ويجب أن تترسخ تلك الغائيات من حيث الإيمان بها في كل فعل حضاري حتى يستمر ذلك من جيل إلى جيل آخر. (حاج حمد، أ، 2004، 293 & 294).

وفي هذا دور فعّال في بقاء المجتمع وصناعة الحضارة، واستمرارها مع ما يحوطه من محافظة على نظارة الأهداف الجديدة، كما نؤكد مرة أخرى أنّ تلك الصورة التي قدمها مالك بن نبي تعطي مشروطية الفكرة الدينية لسلوك الإنسان حتى تُصيّره قابلا لإنجاز رسالة معينة، ودورها لا يتوقف عند حد معين، بل يتعدى إلى المحافظة واستمرار الحضارة، بسبب أنّ المجتمع الذي تُطرح أمامه الصعوبات ليس في وسعه مجابهتها ما لم يكن على بينة من هدف وجوده، وهكذا يضمن هذا الهدف نشاط المجتمع وفعاليته والقابلية للاستمرار والبقاء، وهذا متوقف على إدراك ووعي المجتمع لذاته وللغاية والهدف من وجوده، وحول هذه النقطة يتفق بن نبي مع توينبي على الغائية التاريخية الشارطة لوجود المجتمعات واستمرارها بما يمكنها من مجابهة التحديات، ففي تهديدها تهرع أفراد المجموعة البشرية للرد على ما يهدد وجودها وهو ما يستلزم عمليا (التعاضد بينها في صورة رد جماعي). (بن نبي، م، 1980، 71 & 72)

وفي تقييم لمشروع بن نبي نجد حاج حمد يثني على جهوده، فهي ليست من قبيل الاسترجاع والترديد، وإنما لأجل دفع روحي جديد ضمن واقع متغير جذريا وإنسان متحول، فقد بحث في الثقافة والتوجيه الأخلاقي في مقابل التوجيه الجمالي أو القيم الحضارية، كما أفاد من نظرية دوركهايم القائمة على الترابط بين القيم والأنساق الاجتماعية حينما قال بن نبي: "**الحياة الاجتماعية محكومة بقوانين خاصة شأنها في ذلك شأن الحياة العضوية**." (حاج حمد، أ، 2004، 293). وحجته في ذلك واقعنا الذي نعاني فيه عجزا عضويا من ضروب الشلل الأخلاقي وهو الأخطر على ضوء مُسَلَّمة قبلية مفادها الإسلام "**دين كامل**" في حين أن القضية سلكت منعرجا آخر في ضمير إنسان ما بعد الموحدين (نحن **مسلمون نحن كاملون**) في حين كان الأوْلى التفتيش عن محركات التغيير. (بن نبي، م، 1980، 85)

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

02- اعتراف لكنه مصحوب باعتراض

يقابل حاج حمد هذا الاعتراف باعتراض نقدي نمهد به لتصوره القائم على المنهج التوحيدي لما قال: "**هكذا نهج المرحوم بن نبي لكن لم يستطع أن يمضي إلى حيث ينبغي أن يمضي فعلا، فمالك بن نبي قد أعلن شهادة الوفاة للدورة الحضارية السابقة قاطعا خط الاستمرارية بالشكل التراثي التقليدي**." (حاج حمد، أ، 2004، 299) ووصف بن نبي كيف يكون النقد - حسب حاج حمد- إلاّ أنّ النقد الذي أراده يبقى في طور المشروع فقد صمَّم سفينة جيّدة لكن الإبحار بها شيء آخر. وتعليل حاج حمد لدى اعتراضه أنّ بن نبي أعطانا مجموعة من التوترات النفسية والذهنية منفتحة على عالم جديد، إلا أنه لم يحدد لنا منهجا للخروج من هذه التوترات التي وصفها حاج حمد بذات الجمالية والحضارية، والتعليل التالي أنّ بن نبي أفاد من علوم الغرب تحليلا وتفكيكا، إلا أنه لم يفعّل كل هذا حيال مشكلة الفضاء المخصوص فلم يكن بمقدوره التركيب.

وفي سياق عام يقف حاج حمد على واقع المثقفين العرب لدى تبنيهم المنهاج النقدي التحليلي، إلا أنهم لا يمضون لأبعد من نقد شكلي صوري، أو كما سماه (بالنقد السلبي) دون النفاذ لنقد المضامين المعرفية والمنهجية، أعني في منحى محاورة النصوص الدينية والتراثية بغية اكتشافها وفق المنهج التحليلي، ولا يعني هذا تلك المحاولات كما يقول حاج حمد: "**والتي هي إيجابية حسبه... لمنهجية التراث نفسه وتقييمه واستخلاص ما فيه من تجارب وأفكار واتجاهات بروح التدقيق العلمي**). (حاج حمد، أ، 2004، 299 & 300)

ثالثا: الهندسة المعرفية والمنهجية في سبيل بعث حضارة عالمية إسلامية ثانية عند حاج حمد

01-مداخل عامة حول المنهج المعرفي التوحيدي

يبتدئ أبو القاسم حاج حمد في سعيه لطرح إشكال الحضارة بالعودة إلى القرآن، وعليه وطبقا لمناهج المعرفة النقدية التحليلية، يجب على العقل المسلم اكشاف مدى ما يعطيه القرآن من أدوات معرفية ومنهجيه، تكون مدخلا منه إليه، ووفق المنهج النقدي المعرفي فإنه يجتمع الإيمان بالقرآن، مع الإيمان بالمنهج المعرفي في نفس واحدة، ففي ذلك قابلية القرآن للتعرف عليه بهذا المنهج، من جهة وقابلية هذا المنهج للتعرف على القرآن مستمدا منه المزيد من القوة من جهة أخرى، (حاج حمد، أ، 2004، 300). يجد حاج حمد أن القرآن يتضمن منهجا معرفيا وباكتشافه نلج إلى مكنون نصوصه نَاعتا القرآن بالكرمية والعطاء المتجدد مستشهدا بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**﴾ (الواقعة: 77 & 78) فالمزاوجة بين الإيمان بالقرآن، وكذا العودة إلى

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

المنهج التحليلي، ما هو إلا دليل على ثراء وخصوبة في تفعيل الاكتشاف القرآني وفي ذات الآن مستمدا – أي المنهج- قوته من مصدريته القرآنية.

ولعلّ أهم المؤثرات التي أسهمت في بلورة مشروعه، نجد أبرزها يتمثل في معاناته النفسية والوجدانية التي عايَشها إبان الحرب الأهلية اللبنانية والقصف الإسرائيلي لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين، تسببت هذه الوقائع والظروف في حصول أزمة روحية انتهت إلى الهجوم على الموروث الديني شكا ونكرانا، وفي دوَّامة هذه المعاناة طرح الكثير من الأسئلة حيث يقول: "ولكن لدي ما أطرحه وأجيب عنه المدخل منذ البداية كان مدخلا معرفيا بالمعنى الإبستمولوجي الرافض للإيديولوجيا ولم أكن أتوقف لدى" قدسية" إجابات التراث ... فانظر إليه برؤية نقدية أتجاوز فيها العرف النفسي والتاريخي للمقدس". (حاج حمد، أ، 2004، 300)

02- مقدمات تاريخية في سبيل العالمية

يشِير مفهوم العالمية الإسلامية الثانية إلى التعبير عن دلالة (الكتاب التاريخية)، فهو يقدم تناهي الدورات الدينية إلى أربع مراحل بداية بالدورة العائلية آدم (عليه السلام)، ثم الدورة القبلية (بنو إسرائيل)، ثم الدورة الأمية: "العالمية الإسلامية الأولى التي ضمّت غير الكتابيين." (حاج حمد، أ، 2004، 246).، من المحيط الأطلنطي غربا والهادي شرقا، وأخيرا الدورة الشاملة (العالمية الإسلامية الشاملة)، أين يظهر الهدى ودين الحق على مستوى الكون كله لذا يقول حاج حمد: "**ويستمد مفهومنا لهذه الدورات الحضارية الدينية التي تبدأ بالعائلة وتنتهي إلى الكل البشري من سياق الخطاب الإلهي في القرآن الكريم.**" (حاج حمد، أ، 2012، 53).

وضمن سياق عالمي معاصر، تعود العالمية الإسلامية الثانية بعودة التدافع العربي الإسرائيلي وقضى كما يقول حاج حمد: "**بالتدافع لأن الناس لا يستجيبون عفويا لدعاوي الإصلاح أو النبوات.**" (حاج حمد، أ، 2004، 343). وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج: 38).

هذه الوضعية كما يصفها أبو القاسم دلت على واقع التفكير في العالم العربي والإسلامي، الذي يتميز بالشلل والسكينة النفسية والفكرية البعيدة عن التوترات المساعدة على إنتاج المنهج والمعرفة، وأعاز ذلك إلى الافتقار للمنهجية والمعرفية، والزهد في استخدام المرجعيات الفكرية، رغم محاولة بعض النخب المتفاعلة مع الحد الأعلى الذي بلغته الحضارة العالمية المعاصرة، من مناهج وأدوات تفكير، ولعلنا نقف في هذه الزاوية من التحليل لدى نقطة التقاء مشروع حاج حمد بالمشروع الفكري لدى طه عبد الرحمان والمبني أساسا على الإبداع حضا وممارسة من خلال

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

مشروعه الشاخص في أحد أعماله (الحق العربي في الاختلاف الفلسفي والحق الإسلامي في الاختلاف الفكري) حيث يقول في هذا السياق : "**العربي يحتاج إلى الاعتراف بحاجته إلى إيجاد فلسفة يتميز بها هو كعربي عن غيره من الشعوب لا تميز انقطاع ولكن تميز وإغناء.**" (طه، ع، 2013، 115) هذا التميز والإغناء حال دونه الواقع الراكد إذ يقول حاج حمد: " **ذلك أن الحداثة في الوسط من العلم هي أشكال مستوردة كالأفكار تماما** ". (حاج حمد، أ، 2004، 39).

03- تجليات المنهج المعرفي التوحيدي:(جدلية الغيب والإنسان والطبيعة).

يقسم أبو القاسم حاج حمد الغيب إلى قسمين وهما: علم غيب مطلق لا يعلمه إلا الله - عز وجل- وعلم غيب متشيئ في هذا الكون، من حركة وزمان ومكان، وهو عالمنا الكوني، عالم يمكن كذلك أن نعرف ظواهره وحركاته ومستقبله، وهذا الغيب الذي بإمكان الإنسان أن يعلمه هو (أمر) إلهي ينتهي إلى (التشيؤ) في الواقع عبر الإرادة بما يعطي الصيرورة مداها الزمني في جدلية التكوين وغائية التطور، وبهدف أن يتضمن تركيب الإنسان قوانين وعيه وتفاعله مع الوجود، لكن هذا ليس طعنا في قدرة الله في إنزال الأمر مباشرة في عالم الواقع.

لذلك فالغيب عند حاج حمد هو غيب متشيئ في عالم الأمر، إلى عالم الواقع وهذا ضمن منهجية الخلق وغاياتها المستحوذة على منهجية التشيؤ، (حاج حمد، أ، 2004، 240 & 241). وانتهى إلى القول بثلاث مراتب للفعل الإلهي (مرتبة الأمر. مرتبة الإرادة. مرتبة المشيئة). هذه المراتب تجتمع في صياغة قرآنية بلاغية متناهية الدقة حيث يقول عز وجل: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (يس: 82) وقوله تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (البقرة: 117) وفي موازاة جدل الطبيعة، يطرح القرآن جدل الغيب كتصور كوني شامل ذلك أن تصور الجدليتين للعلاقة بينهما فيه خلاف جذري كبير، فجدل الطبيعة (ينفي) جدل الغيب مرتدا إلى منهجية علمية شاملة تؤمن بوسائلها المادية في البحث.

أما جدل الغيب فإنه لا ينفي جدل الطبيعة ولكنه يستحوذ عليه في قبضته الكلية بطريقة لا يستطيع جدل الأرض أن يكتشفها، لأنها تتم بمعزل عن مقاييسه، ولكنها مع ذلك تتم داخل زمانه ومكانه بقوة خفية لا نجد لها تفسيرا، فالغيب حقيقة واقعية في حياة الإنسان، (حاج حمد، أ، 2004، 181 & 182)، وبمعنى آخر جدل الطبيعة قائم على أسس علمية ومقاييس واقعية مادية بحتة، فهو ينفي جدل الغيب مرتدا إلى مقاييسه الوضعية.

04- القيمة المنهجية للجمع بين القراءتين؛ القراءة القرآنية والكونية

يستخدم حاج حمد مصطلح المنهجية عموما ليعطي معنى (الناظم الكلي) للأفكار أو تقنين الأفكار، أو هي كذلك قانون محدد لإنتاج الأفكار، (حاج حمد، أ، 2004، 34). والمنهجية التي يقصدها حاج حمد هي التي تنطلق من وحدة الكون الطبيعية والإنسانية معا، تقرأ الكون كله

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

بمنهجية واحدة تعتمد على الجمع بين القراءتين، وقد سعى حاج حمد إلى التأكيد على مصدرية منهجه، إذ يضيفه إلى القرآن، فالقراءة الأولى لله بصفة الله خالقا في قوله عز وجل: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ (العلق: 01 &02) والقراءة الثانية بمعية الله والقلم في قوله تعالى : ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *** ﴾ (العلق: 3، 4، 5).

وترتكز منهجية القرآن المعرفية على القوة المرجعية التي يشكلها القرآن الكريم ويعتبرها موجهًا للعلوم الإنسانية، في غاياتها الفلسفية والنهائية، مضافا إليها الاستفادة من منهج القرآن في استيعابه الفلسفي للإنسان والطبيعة والكون، وهو ما يمكّن من حل الإشكالات الدينية وممهدا لطريق الاندراج ضمن مساقات العلم الحديث (حما، ح، www.momimoun.com). ويعرف طه جابر العلواني منهجية القرآن المعرفية بأنها المنهج الذي يقدمه لنا القرآن المجيد في شكل محددات وسن قوانين يمكن استنباطها من استقراء آيات الكتاب الكريم ثم التعامل مع هذه المحددات المعرفية، منها تصحيح مسار المنهج العلمي، وإخراج فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية من مضايق النهايات التي تتوقف عندها، وفي مقدمتها الجمع بين القراءتين، والوحدة البنائية للقرآن، بهدف الخروج من المأزق المعرفي المعاصر، والأزمة الفكرية العالمية المعاصرة، وهي ضرورية بعد فشل المناهج الغربية في تقديم إجابات عن الأسئلة النهائية التي ما تزال معلّقة في ظل اتجاه الحضارة الغربية نحو التوتر والتفكك ومآزق الأزمات العالمية. (العلواني، ط، 2005، 19).

أما عن القيمة المنهجية للجمع بين القراءتين فتتمثل في أن القراءة الأولى تتعالى بالوعي الإنساني عبر الوحي القرآني إلى الكونية بدلا عن الوضعية، فتتكون لدى الإنسان نظرية وجود مرتبطة بالله - سبحانه- لتتشكل عقلية الإنسان وأخلاقياته فيتعالى على نزعته الغريزية البهيمية الدنيوية العابرة، وينتمي إلى منظومة إلهية من القيم، هي نقيض التعالي في الأرض والإفساد وسفك الدماء، مهما كانت المبررات النفعية ونزعتها العلمية، غير الأخلاقية وتمركزها، حول الذات الفردية وإباحيتها الليبرالية ومنهجها الأداتي.

هكذا إذن، تتحقق العالمية الإسلامية الثانية من خلال قراءة حاج حمد المعاصرة للنص القرآني، ضمن السقف الفكري للحضارة العالمية الراهنة طارحة الحلول للمأزق والأزمات التي تعانيها البشرية في أبعادها الفلسفية والحضارية، مجسدة خاتمية الكتاب لا على أساس الاصطفاء العرقي، وإنما على أساس الاصطفاء الإلهي على العهد والميثاق المشروط بالتسامي والوعي ومصداقا لقوله تعالى : ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (آل عمران: 110) ونحو التفاعل مع كل الأنساق الحضارية والديانات المختلفة والمناهج المعرفية لاستيعابها وتجازها باتجاه (**الهدى ودين الحق**)، (حاج حمد، أ، 2012، 658). ليبقى في النهاية حسب حاج حمد أن

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

الدمج بين القراءتين: "**الغيبية والقلمية الأسلوب الوحيد لمنح الفعل الحضاري أبعاده الكونية الصحيحة ليحقق النجاح الكامل... إنها منهجية السلام الكوني الشاملة التي تطرح نفسها بديلا كاملا عن حضارة الصراع والتناقضات.**" (حاج حمد، أ، 2012، 658)

ـ خاتمة :

هكذا يكون المشروع الفكري النهضوي والحضاري لدى كلاّ من مالك بن نبي وأبو القاسم حاج حمد إسهاما متميزا ضمن مسارات الفكر العربي والإسلامي المعاصر ، بالنظر لتَميُّز المضمون والمنهج وجرأة الطرح، ذلك أنهما ينشدان غاية واحدة تتمثل في تحقيق نهوض الأمة العربية والإسلامية، من تيهها في التخلف، لتحقيق نهضتها تأسيسا على قوة مرجعتيها، وما تزخر به من تاريخ حافل، ومضامين الإسلام، الدين الخاتم الذي يمكنها من انبعاث جديد ،انبعاث يجده بن نبي بحسب المعادلة الحضارية متفاعلة العناصر والقائمة على" الإنسان + التراب + الوقت " تحرّكها الفكرة الدينية ، وإمكان تاريخي خطط له بمنحنى الدورة الحضارية، دورة تنتهي إلى الغريزة أو ما بعد الحضارة، حيث يكون إنسانها قد استنفد طاقته في العودة إلى المرحلة الحضارية، مشترطا عليه مالك بن نبي التبخر ليعاد تشكيله من جديد، على الصورة المستقاة من علم الطاقة المائية .

ذلك هو المنهج الإبستمولوجي المعرفي القرآني الكوني، لما له من مقاربات جوهرية وعميقة لتساؤلات العصر، فكان إنتاجه الفكري مشروعا حضاريا إنسانيا شموليا متكامل الأبعاد، قياسا على ما حواهُ من إبداع للمفاهيم، منهجا، ومعرفة ومؤذنا بانطلاق العالمية الإسلامية الثانية، كبديل حضاري عالمي، ذلك أنّ شعوب العالم تنشد البحث عن البدائل إزاء الأزمات الحاصلة اليوم، ليس في البعد الاقتصادي والسياسي فحسب، ولكن في النظم الاجتماعية، والفكرية، والأخلاقية، أيضا وهذا ما توسل إليه أبو القاسم في رؤيته الكونية التوحيدية، والتي لا بديل لها عن الإسلام، ولا مناص وهو دين عالمي وخاتم الرسالات مصداقا لقوله تعالى :﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ **(الفتح: 28)**

ـ قائمة المصادر والمراجع:

بعد القرآن الكريم.

ـ البنا، محمد فؤاد عبد الرحمن، (2013). العروج الحضاري بين مالك بن نبي وعبد الله غولن. ط1، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ـ العلواني، طه جابر، (2005). الجمع بين القراءتين الوحي والكون. د ط، القاهرة: دار الشروق.

- بن نبي، مالك، (1982). شروط النهضة. تر: عبد الصبور شاهين، ط3، دمشق: دار الفكر.

ـ بن نبي، مالك، (1980). ميلاد مجتمع. تر: عبد الصبور شاهين، ط3، الحراش: الملكية للإعلام والنشر.

ـ حاج حمد، محمد أبو القاسم، (2004). إبستمولوجية المعرفة الكونية إسلامية المعرفة والمنهج. ط1، بيروت: دار الهادي.

ISNN: 2253-0592 EISSN: 2588-199X / Prefix: 10.46315

ـ حاج حمد، محمد أبو القاسم، (2004). الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن. ط1، بيروت: دار الهادي.

ـ حاج حمد، محمد أبو القاسم، (2004). منهجية القرآن المعرفية أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية. ط1، بيروت: دار الهادي.

ـ حاج حمد، محمد أبو القاسم، (2012). جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية. ط3، بيروت: دار الساقي.

ـ دواق، الحاج أوحمنة (2015). الأبستمولوجيا الكونية والمنهج المعرفي التوحيدي. ط1، عمان: المعهد العالي للفكر الإسلامي.

ـ طه، عبد الرحمن، (2013). الحوار أفقا للفكر. ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

***- المواقع الإلكترونية:**

حما الحسن:(2014). منهجية القرآن المعرفية مدخلا لتجديد علم الكلام المنهج والموضوعات. تم بتاريخ 05/ 01/ 2020 على الساعة 11.15. https://www.mominoun.com/articles/%D9%